

## ملاحح من الواقعية الاجتماعية في شعر إيليا أبي ماضي

صادق فثحي دهكردي<sup>١</sup>، سكية حسيني<sup>٢</sup>

١. أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران، فرديس فارابي

٢. ماجستيرة في اللغة العربية وآدابها من جامعة طهران، فرديس فارابي

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٥/٥/٣٠؛ تاريخ القبول: ٢٠١٥/٧/٢٨)

### الملخص

يعتبر إيليا أبو ماضي من أشهر الشعراء العرب الرومنسيين الذين عاشوا في الغربية والتشريد. تحدث في شعره عما يعاني منه أبناء شعبه، من هموم ومعاناة تتصل بالواقع الذي فرضه عليه المستعمرون. ويتطرق في شعره إلى القضايا الاجتماعية التي حدثت في عصره ويجسد شعره طموحاته ورغباته ومشاكله. فعبّر عن مكانة الإنسان في مجتمعه بذكر آلام الأمة العربية. نجد في شعره تأملات كثيرة في مجتمعه وتجارب يأخذها الشاعر من حياته المليئة بالأحداث والمصائب، وكان اهتمامه بالمشاكل الاجتماعية والإنسانية جزءاً من تجربته الشعورية. كان الشاعر ورغم انتمائه إلى المدرسة الرومنسية يعكس معاناة البلاد العربية والإنسان العربي ويغوص في الفكر وفي تغيير الظروف الاجتماعية وأوضاع الحياة العامة، ويهتم بالقضايا الإنسانية، والمنهج المتبع في البحث هو المنهج الوصفي- التحليلي الذي يقوم على ذكر نماذج شعرية للشاعر ثم درسها ومعالجتها والاستنتاج منها. ومن أهم نتائج هذه الدراسة أن الشاعر يخطو خطوات عالية نحو تطوير وبناء مجتمع إنسانيّ تسوده المحبة والإخاء والعدالة الاجتماعية، ويعالج في هذا الإطار نقائص مجتمعه ونقد قوانينه، ويدعو الإنسان أيضاً لخدمة وطنه والوقوف في وجه الظالمين ومساندة الفقراء في الشؤون الاجتماعية.

### الكلمات الرئيسية

إيليا أبو ماضي، الشعر، النزعة الإنسانية، الواقعية الاجتماعية، الرومانسية.

## مقدمة

تهتم المدرسة الرومانسية بقضية الإنسان والتعبير عما يعتلج في ذاته وأيضاً دوره ومكانته في المجتمع وتحاول إقامة مجتمع مثالي ينتج عنه إنسان متكامل يعيش عيشة راضية بعيداً عن أي قيد وحد، ومن هنا تتصل الرومانسية بالواقعية حيث نرى كثيراً من الأدباء الرومانسيين يستطردون إلى المواضيع الاجتماعية. إن معرفة الواقعيات الاجتماعية والوصول إلى كنهها، تعطي صورة واضحة من مختلف شؤون الحياة. إن الواقعيات تكشف عن القيم والعادات والتقاليد، وهي لذلك لا تستطيع الانفكاك من العوامل الاجتماعية والتقاليد التي ورثها مجتمع الشاعر. وتعكس هذه الواقعيات المشاكل الاجتماعية وتتعبق أوجاع الناس ومشاكلهم وتقضي على الموانع الموجودة أمام رقي المجتمع وتهتم بالإنسان والأمور الإنسانية وتشير إلى حياة الفقراء والضعفاء والأثرياء وحالاتهم وتبحث عن جذور الأهم في المجتمع.

فإيليا أبو ماضي من أهم الشعراء المعاصرين الذين كتبوا عن القضايا الاجتماعية رغم انتمائه إلى المدرسة الرومانسية، فيكشف عن مواضع النقص والخلل في المجتمع، وكان من الشعراء المهجريين الذين اتجهوا إلى المجتمع. إن الرسالة الاجتماعية كجزء من الرسالة الإنسانية تستهدف الكرامة والمنزلة للمجتمع الإنساني، وأدباء المهجر حملوا لواء إصلاح المجتمع فهم يناصرون الفقراء ويطلبون حقوقهم ويتعقبون أوجاعهم وآلامهم (جاد حسن، ١٩٨٥: ٣٤١-٣٤٢). فدراسة الواقعية الاجتماعية من أهم مجالات الدراسات المعاصرة التي أيقظت الرأي العام العالمي.

يهدف هذا البحث إلى دراسة الموانع الاجتماعية وجذورها، في سبيل تطوير المجتمع الإنساني فيقوم بتحليل ونقد لبعض القضايا الاجتماعية، بما فيها مميزات ومكانة الإنسان والمرأة والوطن والفقير والظلم في المجتمع من منظور أبي ماضي، من خلال أشعار الشاعر وأثاره، وهذه هي الأمور التي يجدر بالمجتمعات أن تقوم بها. ومن الموانع التي تحول دون رقي المجتمع: عدم الاهتمام بالمرأة، والمعتقدات السائدة وعدم العناية بالمجتمع وما يجري فيه. والحلول المناسبة للخروج من المشاكل هي: إزالة الفقر والحرمان، والاحترام المتبادل بين الناس في المجتمع، والعناية بالقيم الإنسانية والخلقية. وكذلك يعرض هذا البحث أفكاره وسمات دعوته في المجتمع الإنساني، ويشير إلى خلاصة آرائه الاجتماعية وأفكاره الإصلاحية، ويساعدنا في معرفة الأسباب والدوافع التي دفعت الشاعر إلى مغادرة بلده، وهكذا حاول أبو ماضي أن يبني عالماً جديداً.

والأسئلة التي تحاول البحث الإجابة عنها هي: ١. ما هي أهم المواضيع الاجتماعية التي تناولها أبو ماضي في شعره؟ ٢. ما هي نظرة الشاعر إلى وطنه؟ ٣. كيف يقوم الشاعر بدوره الأساسي في إصلاح المجتمع الإنساني؟ وتقوم فرضيات البحث على: ١. إن الحقائق الإنسانية والاجتماعية والوطنية من أهم الموضوعات التي استخدمها أبو ماضي في شعره، وشعره مصدر هام يعرض أفكاره في هذه الموضوعات. ٢. الوطن عند الشاعر وسيلة للتخلص من مأساته وللتهرب من أحزانه وآلامه، فترى رغبته الشديدة إلى نصرته الوطن والدفاع عن الناس وحقوقهم في أمور متعددة. ٣. إنه قام بدعوة الناس إلى التعاون والاتحاد والمحبة والروح الوطنية والعدالة الإنسانية.

وأما بالنسبة لخلفية البحث فهناك دراسات عن الشاعر وآرائه المختلفة في الحياة والمجتمع. جدير بالذكر أن مير قادري ودهقانيان في مقال بعنوان "عشق وطن وفلسفه هستي در شعر ايليا ابو ماضي" ("حبّ الوطن وفلسفة الكون في شعر إيليا أبي ماضي" مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة شيراز، سنة ١٣٨٦ش) درسا قضية حبّ الوطن، ومقالة "فلسفة إيليا أبي ماضي في شعره" للمقدسي والمحمودي وعبداللهي (مجلة اللغة العربية وآدابها، سنة ١٤٣٣، العدد ١٤) ومقالة "خوشبيني در شعر ايليا ابو ماضي ومحمد حسين شهريار" ("التفاؤل في شعر أبي ماضي ومحمد حسين شهريار" لخاقاني إصفهاني وجعفري، مجلة الأدب المقارن، سنة ١٣٨٩ش، العدد ٢). وجبر عبد النور في مقالة بعنوان "ايليا ابوماضي از شعراي بنام لبنان در آمريكا" (إيليا أبو ماضي من كبار شعراء لبنان في أمريكا" مجلة الدراسات الأدبية، سنة ١٣٤٦ش). بينما يختلف هذا المقال تماما عن المقالات أعلاها حيث يتطرق إلى تجليات الأفكار الاجتماعية الإصلاحية للشاعر الذي ينتمي إلى المدرسة الرومنسية .

#### إيليا أبو ماضي سيرته الذاتية والأدبية

إيليا أبو ماضي، شاعر لبناني، من كبار شعراء المهجر، وُلد عام ١٨٨٩م، في قرية "المحيثة" ببلبنان، إنّه غادر لبنان واتجه أولاً إلى "الإسكندرية" وأقام فيها منذ سنة ١٩٠١م إلى ١٩١٢، وفي عام ١٩١٢م هاجر إلى الولايات المتحدة (نايف حاطوم، ١٩٩٤: ٣). إنّه أقام في مدينة "سنسناتي أوهايو" وعمل عند شقيقه مراد خمس سنوات، ولم يجد في مدينة "سنسناتي" ما كان يطمح إليه من العلم والأدب فانتقل إلى "نيويورك" وقد شارك في تحرير "المجلة العربية" وتحرير مجلة "الفتاة" و"مرآة الغرب"، وفي عام ١٩٢٠م انخرط في الرابطة القلمية التي أسست

في نيويورك. لإيليا أبي ماضي دواوين عدّة منها: ديوان "تذكار الماضي" نشره في عام (١٩١٢م). ونشر "ديوان أبي ماضي" في عام (١٩١٩م) وديوان "الجدول" في عام (١٩٢٧) ويرجع صيته إلى هذا الديوان (نايف حاطوم، ١٩٩٤: ١١-١٧). أبو ماضي صدر الدواوين التالية في "الولايات المتحدة": ديوان أبي ماضي، والجدول، والخمائل، وتبر وتراب (المعوش، ١٩٩٧: ١١٣). إنّ الشاعر كان في "ديوان أبي ماضي" يهتمّ بأمور أساسية كالقضايا الاجتماعية والوطنية ومظاهر الطبيعة وأيضاً الحديث عن معاناة المجتمع وآماله (المعوش، ١٩٩٢: ١١٩). وكان كلما أتاحت له الفرصة يركّز على العلم والأدب والثقافة ويقضي أكثر أوقاته في القراءة والكتابة، فإنّه نزح عن لبنان وله شيء قليل من العلم (المعوش، ١٩٩٢: ٤٤). أدخل الشاعر أشكال ومضامين جديدة في شعره، ومن حيث المضمون فقد استعار مضامين الأقدمين في بعض أشعاره وفي بعض آخر كان مجدداً (جحا، ٢٠٠٣: ١١٤). وكان التقليد سمة أساسية في شعره وهو يتبع طريقة القدماء في بعض أشعاره وقدّ طريقتهم بأشكال مختلفة، فكان الشاعر كلاسيكياً في الأوزان والقوافي وضبط الأوزان (الجيوسي، ٢٠٠٧: ١٧٠). لكنّه تأثر فيما بعد بالمذهب الرومانسي، ومن ميزات شعره ذكر الطبيعة وجمالها والنزعة الإنسانية والتعبير عن شوقه الخاص إلى الوطن في قصائده الوطنية (خليل، ٢٠٠٧: ١٣١).

### المهاجرة

واجه الشاعر في مجتمعه مشاكل عديدة منها: ظلم الأتراك العثمانيين على المجتمع العربي، والمشاكل السياسية والاجتماعية والظروف السيئة التي قلّلت من الإمكانيات المادية داخل المجتمع، وهذه الظروف القاسية عادة تجعل الإنسان يبحث عن طريق للوصول إلى أهدافه وآماله التي تمنع عنه الفقر والظلم والاستبداد، ولم يكن الشعراء يعرفون طريقاً إلى ذلك سوى الهجرة ومغادرة بلادهم لكي ينجوا من الأزمات السياسية والاجتماعية والمعيشية وبحثوا عن حياة كريمة للوصول إلى طموحاتهم، وإيليا أبو ماضي من الشعراء الذين هاجروا إلى أمريكا الشمالية (المعوش، ١٩٩٧: ٢٣-٢٤). والشعراء اللبنانيون كانوا يجسّدون في أشعارهم أمورا متعددة من مآساتهم وثقافتهم العربية وحياتهم الاجتماعية (موسى، ١٩٨٦: ٣٢).

وهناك أسباب كثيرة لهجرة الأدباء والشعراء من البلدان العربية إلى الأمريكيتين في القرن التاسع عشر، كطموحات عالية، والسلطات الحاكمة على المجتمع العربي، فأجبرتهم هذه المشاكل لكي يغادروا بلادهم (الهوري، ٢٠٠٩: ٧). إنّ أبا ماضي نزح عن وطنه قاصداً "الولايات المتحدة"

وقلبه مليءً بالألام والمشاكل وعنده تجارب أليمة ذاقها منها: الفقر والظلم والفساد والحرمان والظروف السيئة ورغبته الشديدة إلى العلم والأدب، وهذه المشاكل هي التي دفعته إلى الابتعاد عن الوطن (المعوش، ١٩٩٧: ٣٢). كانت حياة الشاعر في المهجر مليئةً بالمعاناة الفردية والاجتماعية أيضاً، وهذه المعاناة التي يتحدث عنها الشاعر لها أسبابها وجذورها. إنَّ الاغتراب أثر في إيليا أبي ماضي وجعل أشعاره مؤثراً في النفوس وهي تخرج من القلب الجريح للبعد عن الوطن والعيش في الغربة، إنَّه يصف معنَّته في تشرده فيقول في قصيدة "أمنية المهاجر":

جُعْتُ والخُبْزُ وثِيرٌ في وطابي      والسَّنَا حَوَلي وروحي في ضبابِ  
وَشَرِبْتُ المَاءَ عَذْباً سائِغاً      وكأني لم أذُقْ غَيْرَ سَرَابِ  
مِحنَةٌ لَيْسَ لَهَا مِثْلٌ سِوى      مِحنَةُ الزُّورِقِ في طَاغي العُبابِ  
(أبو ماضي، ٢٠٠٢: ١٥٤)

رغم أنَّ الخبز متوقِّر في وطابي إلا أنني أشعر بالجوع ورغم أنَّ الضوء في حوالي إلا أنني أشعر بأنَّ روحي في الظلمة، وأنا شربت الماء العذب كأني لم أشرب إلا السراب، فلا توجد لمحتي مثل ومثلي مثلُ زورق وقع في الأمواج الثائرة، أي رغم وجود الإمكانات المادية كانت حياتي مليئةً بالأحزان والمشاكل.

### النزعة الإنسانية لدى أبي ماضي

إنَّ النزعة الإنسانية هي من أسمى النزعات لدى الإنسان. فإنَّها تشتمل على كل ما في الوجود الإنساني من العواطف والمشاعر، وترتفع بالإنسان إلى أعلى المراتب والدرجات. إنَّ الحنين إلى الوطن نزعة إنسانية تعبّر عن ارتباط الإنسان وشوقه الخاص إلى وطنه وتمثّل جمال الوطن ومحاسنه وأنَّ التأمل في الوجود والنفوس والعيش والعالم نزعة إنسانية نراها في أشعار المهجريين، وتتجلّى هذه النزعة في حبهم للمرأة وإدراك آلامها ومشاعرها وفي حبهم للناس وللأمهات والأبناء، ذلك الحب الذي يكون بعيداً عن الشهوات والنزوات النفسية. وأيضاً هذه النزعة تفسّر أحزان الناس وآلامهم وتخفّف من مشاكل المجتمع ومأساته بإشاعة الأمل والتفاؤل والسرور وتنتشر الأصول والمبادئ الشريفة وتحسّن مستوى معيشة الشعب (جاد حسن، ١٩٨٥: ٤٠٥-٤٠٧). إنَّ أبا ماضي شاعر إنساني، اجتماعي يدعو الناس إلى الحب، ويعتزُّ بوطنه ويعشق الحرية ويذكر محاسنها ويعنى بالطبيعة ويستلهم منها في حياته الاجتماعية، ويحارب الغرور والتكبر (جاد حسن، ١٩٨٥: ٤٧٠-٤٧١).

إنَّ شعراء الرابطة القلمية لهم شعور مرهف بالمشاكل الإنسانية ولهم تأملات شعرية وأنهم يرون فيها حقائق خالدة وهذه الواقعيات المرة عادة تؤدي إلى اليأس والحزن في المجتمع (ضيف، دون تا: ١٨٢). إنَّ الشاعر اتجه إلى الواقع في مجتمعه، فدخل موضوعات الفقر، المرأة، الظلم، الفرور والفساد... في أشعاره، وبما أن ظاهرة الفقر والغنى والظلم لا تختص بوطنه لبنان بل قضية إنسانية عالمية، وهذه القضايا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالقضايا الاجتماعية، فنرى أن الشاعر عندما يتحدث عن هذه الأمور يذكر دورها الهام في المجتمع، وقد حفل شعره بالمشاكل الاجتماعية التي عانى منها الشاعر فهي مشاكل مختلفة الجوانب، وإيليا أبو ماضي يهتم بقضايا المجتمع ويذكر آلامه ومأساته من خلال أشعاره ويطلب إصلاح المجتمع، داعياً إلى القضاء على تلك المشاكل (المعوش، ١٩٩٧: ٧٠-٧١). إنه يرغب في بناء مجتمعه ويحاول أن يشارك في إصلاح الأمور الوطنية والقضاء على المعاناة، لكنَّه ما استطاع أن يحصل على أهدافه لأنَّه يعيش في الغربه والتشريد (المعوش، ١٩٩٧: ٢٥٠). إنَّ الاغتراب عامل أساسي لعناية الشاعر بالألام الاجتماعية والإنسانية. حتى أصبح هذا الشاعر بين الشعراء المهجريين أكثرهم تعمقاً بالقضايا الإنسانية (الطباع، ٢٠٠٦: ١١٦).

### الإنسان والإنسانية من منظور أبي ماضي

يرى إيليا أبو ماضي أن الوظيفة الحقيقية للشعر هي أن تكون في خدمة المجتمع والإنسانية وبما أن المحور الرئيسي في المجتمع المثالي هو الإنسان الكريم فيحاول الشاعر في كثير من أشعاره أن يبين مواصفات الإنسان والإنسانية كي يتحقق بذلك المجتمع المنشود الذي يقصده فكانت نظرة أبي ماضي إلى الإنسانية نظرة شاملة. والإنسانية حسب رأي ألفرد الخوري «بناء متكامل متصاعد وخط عمودي يمضي قدماً، وهي بالتالي قوة متماسكة مترابطة متفاعلة على تباين أحاسيسها، واختلاف عقائدها، تهدف إلى الحق والسلام والطمأنينة والاستقرار» (البرهومي، ١٩٩٣: ٧٥).

قال أبو ماضي: سألوني أن أصف لهم الإنسان الكريم، فأجبتهم:

إنَّ الكَرِيمَ لَكَالرَّبِيعِ، تُحِبُّهُ لِلْحُسْنِ فِيهِ      وَتَهَشُّ عِنْدَ لِقَائِهِ، وَيَغِيبُ عَنْكَ فَتَشْتَهِيهِ  
وَإِذَا اللَّيَالِي سَاعَفَتْهُ لَا يُدَلُّ وَلَا يَتِيَهُ      وَتَرَاهُ يَبْسُمُ هَازِئاً فِي غَمْرَةِ الْخَطْبِ الْكَرِيمِ  
وَإِذَا تَحَرَّقَ حَاسِدُوهُ بَكَى وَرَقَّ لِحَاسِدِيهِ      كَالْوَرْدِ يَنْفُجُ بِالشَّدَى حَتَّى أَنْوَفَ السَّارِقِيهِ

(أبو ماضي، ٢٠٠٢: ٨٤٩)

يقول أبو ماضي في وصف الإنسان الكريم: إنّه كفصل الربيع في حسنه وجماله، لذا يستحسنه الناس ويحبونه، وعندما يغيب عنّا فنحن نشواق إلى رؤيته وإذا أصبح الدهر يسبح عليه النعم والبركات لا يصبح مغروراً بذلك، وإذا تلحقه كارثة عظيمة بيتسم من جراء ذلك هازئاً، وإذا رأى أنّ الحساد يذوبون في حسادتهم له، يحزن من أجلهم ويبيكي لهم؛ لأنّ قلبه رقيق وعطوف، وهو كالزهرة لأنّه لا يمنع رائحته الطيبة حتى على أعدائه فتعمه شاملة تعمّ الجميع.

يصف أبو ماضي من خلال هذه الأبيات صفات الإنسان الكريم رداً على سؤال سائل، ويبدأ وصفه بالربيع واتصاف الشخص الكريم بصفات مثل الطلاوة وحسن معاشرته الناس بحيث يملك قلوب الناس جميعاً. إنّ الإنسان الكريم ليس من الذين تفتنهم الدنيا لأنّهم يعيشون عيشة كريمة في كلتا الحالتين سواء كانوا في عيش رغيد أو كانوا يعانون من مشاكل، ويذكر صفة أخرى للإنسان الكريم وهي صفة الرحمة بحيث تشمل رحمتهم كل الناس حتى الأعداء والحساد.

إيليا أبو ماضي استطاع أن يقود الشعر العربي صوب الأهداف الإنسانية، كت تحقيق العدل الإنسانيّ وردّ الإنسان إلى أصله الترابيّ، كما جاء في قصيدته "الطين":

نَسَى الطينُ سَاعَةَ أَنَّهُ طينٌ	حَقِيرٌ فَصَالٌ تيهًا وَعَرَبِيدٌ
يا أخِي لا تَمَلْ بِوَجْهِكَ عَنِّي،	ما أنا فَحَمَةٌ ولا أَنْتِ قَرْقَدٌ
ولِقَلْبِي كَمَا لِقَلْبِكَ أَحْلا	مُ حَسَانٌ فَإِنَّهُ غَيْرُ جَلْمَدٌ
أَمَانِي كُلُّهَا مِنْ تُرابٍ	وأمانيكَ كُلُّهَا مِنْ عَسْجَدٍ؟

(أبو ماضي، ٢٠٠٢: ٣١٦)

يقول أبو ماضي إنّ الإنسان الذي هو مصنوع من الطين نسي أنّه من التراب ويرجع إليه فيخاطب الإنسان المغرور الذي يفتخر بنفسه ولا يعبأ به قائلاً له: إنني لستُ فحمة ضئيلاً وأنت لست كوكبا ساطعاً، ثم يقول لي آمال كما لك آمال وأهداف وليس قلبي من صخرة صمّاء، وإنّ أحلامي ليست من تراب وأحلامك ليست من ذهب خالص.

إنّ الغرور والتكبر من الظواهر الاجتماعية التي يشير إليها الشاعر، وهو من أسباب تخلف المجتمع وعدم وصوله إلى الرقي والتطور، وحاجز أمام تقدم الناس وبناء مجتمع إنساني سليم، وأبو ماضي يعتقد أنّ الناس يتساوون (المعوش، ١٩٩٧: ٢٥٢). إنّ الشاعر في نزعة الإنسانية يدعو الإنسان إلى التسامح والإخاء في كل زمان ومكان، وهذه القصيدة تشير إلى أنّه كان مصححاً اجتماعياً يحارب الغرور والتكبر والمشاكل الإنسانية في المجتمع ويسائل الإنسان عن سبب غروره أمام الآخرين، بالرغم من أنّه مخلوق من طين.

ويلٌ للغني الذي حصل على ثروة هائلة دون معاناة الصعوبات والمشاكل أو حصل عليها بالوراثة فراح يفتخر بنفسه وويلٌ لهؤلاء المغرورين الذين أصبح وجودهم مليئاً بالفخر والتكبر، فظنّوا أنّهم قد بلغوا أعلى الدرجات وأنّهم عندما وجدوا في أنفسهم هذا الداء الأخلاقي أي الغرور والتكبر، ما استطاعوا أن ينفخوا أنفسهم أو ينفخوا الآخرين (نايف حاطوم، ١٩٩٤: ٨٨).

ويقول الشاعر في هذه الأبيات:

لا أراه من كوة الكوخ أسود	إن يكن مشرقاً لعينيك إنّي
فلماذا، يا صاحبي، التيه والصّد	أنت مثلي من الثرى وإليه
إن قلبي للحب أصبح معبّد	لا يكن للخصام قلبك مأوى
من كساء بيالي ومال ينفد	أنا أولى بالحب منك وأحرى

(أبو ماضي، ٢٠٠٢: ٣١٧-٣٢٠)

يقول الشاعر: إن كان ذلك قد ظهر أمام عينيك بشكل واضح، فإني لا أستطيع أن أرى ذلك من خلال فجوة هذا الكوخ الأسود. أنت وأنا كلانا مخلوقان من الطين وسنعود إلى التربة من جديد، فيا صديقي لماذا تصد بوجهك عني وتتكبر ولماذا هذا الغرور؟! لا تجعل في قلبك محلاً وملجأً للخصومة والنزاع، فإن قلبي أصبح معبداً للحب والعشق. يا صديقي أنا استحق الحب أكثر منك وذلك أجدر من ثوب يصبح باليا ومندرساً وأجدر من أموال تنتهي في يوم من الأيام. ثم يستنتج قائلاً إن قيمة الإنسان أغلى من ملابس وأموال تبلى بعد مدة قليلة ولا يبقى شيء منها فينبغي أن تحترم الناس لأن قيمة كل شخص بالإنسانية والاحترام المتبادل.

فمادام ذلك الإنسان جسده من طين لماذا لا يوجد في قلبه المودة، ولماذا لا يعطف على الآخرين ولا يهتم بالقضايا الإنسانية التي لها قيمة خاصة في المجتمع البشري، فعلى الإنسان أن يعتني بأخيه لأنه أولى بالاحترام والإحسان من الظواهر والماديات (نايف حاطوم، ١٩٩٤: ٢٣٧).

إنّ الشعر المهجري مليء بالآراء الاجتماعية، في عبادة المال وفي البخل كما يتحدث الشاعر عن التكبر، وقصيدة "الطين" لإيليا أبي ماضي، من أحسن القصائد التي تحذر عن الغرور والفخر والكبرياء، وهي لحن رائع من ألحان المساواة، ويقوم الشاعر بنقد الإنسان الذي يفتخر بماله ويتنعم بالعيش، وبالطبع يؤدي هذا الأمر إلى الثورة عليهم من قبل الذين لا يملكون من الثروة والمال إلا الشيء الضئيل، ويصور لنا أنّ الإنسان المتكبر لم يعرف مكانته الواقعية وهناك بون شاسع بينه وبين السعادة الحقيقية وهو لا يكاد يفقه أنّ مكانة الإنسان ليست بجمع المال بل الإنسان يُعرف بالإنسانية والأخلاق.



هذه الأشعار تجعلنا نتأمل في أنّ وجود الإنسان على الأرض من شيء واحد ورجوعه إلى المصدر نفسه، والشئ الوحيد الذي يكتب له الدوام والبقاء هو العطف والحنان والإحسان إلى الآخرين، ويعتقد الشاعر أنّ الجميع يتساوون في العواطف والمشاعر الإنسانية مهما كانوا يعيشون في كوخ متواضع أو في قصر ملكي.

وأيضاً يقول أبو ماضي في قصيدة "الكبرياء خلة الشيطان":

لِي صَاحِبٌ دَخَلَ الْغُرُورُ فَوَادَهُ      إِنَّ الْغُرُورَ أَخِيٌّ مِنْ أَعْدَائِي  
يَا صَاحِبَ إِنَّ الْكِبَرَ خُلِقَ سَيِّئٌ      هِيَهَاتَ يَوْجَدُ فِي سَوَى الْجَهْلَاءِ

(أبو ماضي، ٢٠٠٢: ٩٨)

لي صديق قد شاب قلبه الغرور والكبر، فهذا الغرور يعدّ لي أخوا من جانب أعدائي. وفي البيت الثاني يقول: يا صديقي اعلم أنّ الكبر والغرور يعدّ من الأخلاق السيئة فلذا لا يمكن أن نجد مثل هذه الصفة سوى في المجانين والحمقاء.

إنّ الشاعر يحارب الغرور والتكبر لأنّه آفة تدفع الإنسان عن طريقه الأصلي في مجرى الحياة فإذا الغرور خلق سيء لا نجده سوى عند الجاهليين (المعوش، ١٩٩٧: ٧٠).

وَالْعَجِيبُ دَاءٌ لَا يَنْبَالُ دَوَاؤُهُ      حَتَّى يَنْبَالَ الْخَلْدُ فِي الدُّنْيَاءِ  
فَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْأَنَامِ تَفَزَّ بِهِمْ      إِنَّ التَّوَاضُعَ شَيْمَةُ الْحُكْمَاءِ

(أبو ماضي، ٢٠٠٢: ٩٨)

والشيء العجيب أنّه مرض لا يتمكن من الوصول إلى دوائه سوى من يكون خالداً في الدنيا. فتعامل مع الناس بصدق ورحب وبذلك تكسب قلوبهم؛ لأنّ التواضع صفة من صفات الحكماء والعقلاء.

يظهر لنا من خلال الأشعار التي درست أنّ إيليا أبا ماضي كان يهتم بإزالة الغرور والكبر من المجتمع، وبهذا نرى اهتمامه بجوانب الحياة المختلفة، وفي الواقع كانت عنده نزعة إنسانية تدفعه إلى الخير والعدالة فيميل في معظم أشعاره إلى خدمة المجتمع بكل رغبة.

«وقد أعجب الأستاذ ألفرد الخوري بشاعر كأبي ماضي يدافع عن الإنسان بكل قواه وعزمه، فكأنّ بلاء أخيه في الإنسانية بلاؤه وهنا يتمّ فعل المشاركة والاندغامية» (الطباع، ٢٠٠٦: ٩٢). يعتبر جبران ونعيمة وأبو ماضي ونسيب عريضة من رواد الرسالة الإنسانية، الذين لم يألوا جهداً لتطوّر المجتمع الإنساني (جاد حسن، ١٩٨٥: ٣٢٦). وأبو ماضي من الشعراء الذين اهتموا برفع مصائب الناس بدعوتهم إلى الحب والعدالة الإنسانية والتأمل في

الوجود والرجوع إلى أصلهم الترابي، وأبو ماضي يبشّر الناس بحبّ الحياة ويقودهم إلى الحياة المتطورة ويهتمّ بالإنسانية فيحاول أن يقضي على المشاكل والمحن التي يتعذّب الناس منها في المجتمع ويسعى أن ترجع القيم الإنسانية إلى المجتمع البشري.

### المرأة

إنّ قضية المرأة قضية أساسية في المجتمع البشري، ولها دور هام في تطور المجتمع، فحاول الشاعر إيليا أبو ماضي أن يمثّل واقع المرأة، ويطرح المشاكل التي تعاني منها المرأة على كلّ المستويات. وفي الواقع لا يقدر أحد أن يجادل في أهمية دورها في المجتمع، فالمرأة تؤثر في حركة الحياة والمجتمع تأثيراً عميقاً وهي كجزء أساسي في بناء المجتمع، وإيليا أبو ماضي في قصيدة "الرجل والمرأة" يقول:

إلى مَ تُحْتَقَرُ الْفَادَاتُ بَيْنَكُمْ	وَهُنَّ فِي الْكَوْنِ أَرْقَى مِنْكُمْ رُتَبًا
كُنْ لَكُمْ سَبِيلاً فِي كُلِّ مَكْرَمَةٍ	وَكُنْتُمْ فِي شِقَاءِ الْمَرْأَةِ السَّبِيحَا
زَعَمْتُمْ أَنَّهُنَّ خَامَلَاتُ نَهْيٌ	وَلَوْ أُرِدْنَ لِصَيِّرَنَّ الثَّرَى ذَهَبًا

(أبو ماضي، ٢٠٠٢: ١٧٢)

يقول الشاعر لماذا تُحتقر النساء بينكم وهنّ أعلى منكم مكانة ومرتبة وأنتم سبب أساسي في مصائب المرأة ومشاكلها فهي التي توفرّ لكم المكارم وأسباب الحياة السعيدة، وزعمتم أنّ النساء أقلّ فهما وعقلا في المجتمع الإنساني، ولكن بإمكانهنّ إيجاد تغييرات أساسية في المجتمع وأن يجعلن التراب ذهاباً.

إنّ الشاعر يشير إلى المعتقدات الخاطئة الموجودة في المجتمع فيرفع من قدر المرأة وينبه على مسألة وهي أنّ النساء قد هضمت حقوقهم، ويطرح موضوعاً آخر يتعلق بالمشاكل التي تسبب عدم مشاركة النساء في الفعاليات والنشاطات المختلفة في المجتمع.

ومن جملة هذه المشاكل أمام تقدّم المرأة وجود المعتقدات المزعجة التي تحكم المجتمع، وبتعبير آخر كانوا يعتقدون أنّ النساء أقلّ فهماً وإحساساً بالمسؤولية من الرجال، وأيضاً عدم الإيمان بقدرات النساء، وقد نظروا إليها نظرة احتقار. وفي الواقع يهدف الشاعر إلى تغيير هذه النظرة والرؤية بالنسبة إلى النساء مبيناً أنّ النساء إذا أردن أن يقمن بتغييرات أساسية في المجتمع، لفعلن ذلك، ويجب قبول المرأة كمنصر هام في سبيل تطور المجتمع. فإنّ أبا ماضي يبرز مكانة النساء في بناء المجتمع الإنساني وتقدّمه وقد ساهمن في تنظيم الشؤون الاجتماعية وفي رفع مستوى النساء في البلاد، ولكنهنّ لم يحصلن على مكانتهن الحقيقية.

فيحاول أبو ماضي أن يوقظ الناس من نوم الغفلة ويخرجهم من الجمود إلى النشاط والفعالية، ويرى أن السبب الأساسي في تخلف المجتمع هو الظلم للمرأة، فالشاعر ينتقد هذا الواقع، وواقع استعبادها من جراء العلاقات الاجتماعية الجائرة التي تتحكم في البلدان المتخلفة وبالرغم من جهودها ومعاناتها في المجتمع، فلا أحد يستطيع إدراك آلامها وعواطفها. فيحاول الشاعر أن يخرج المرأة ممّا تحس به في وجودها من متاعب ومشاكل وما يخطر ببالها، فهو متفائل بقدره المرأة ويتحدث الشاعر عمّا في وجودها ويمثّل قدراتها وجهودها ويوقظ ضمير الرجال الغافلين عمّا في باطنها من النشاط والفعالية. ويرأيه هناك للمرأة مكانة ومنزلة مرموقة، ويرى أن الشعب لم يعرف قيمتها ومكانتها الشامخة في المجتمع، فالمرأة التي يصورها الشاعر لاتزال حياتها مفعمة بالأم نفسية.

يقول الشاعر في قصيدته "المساء": سلمى... بماذا تفكرين؟ / سلمى... بماذا  
تحلمين؟ / إنَّ الجمالَ يغيبُ مثلُ القبحِ تحتَ البرقعِ / لكنَّ لماذا تجزعين على النهارِ  
وللدجى / أحلامه ورغائبه / وسماؤه وكواكبه؟ (أبو ماضي، ٢٠٠٢: ٧٦٦)

يقصد الشاعر من لفظة "النهار" الواردة في البيت، الحياة السعيدة، المريحة، الكريمة كما يقصد من لفظة "الدجى" الحياة المضطربة، المحفوفة بالمشاكل والمخاوف. فيقول إن حياة الإنسان إذا كانت مليئة بالصعوبات والآلام فلا بد أن تتغير وتتحوّل إلى حياة سعيدة كريمة، ولكن شرط أن يجتهد هذا الإنسان المتعبو يكرّس جُلَّ جهده في سبيل تحقيق آماله ويسعى لكي يبدّل حياته المضطربة بحياة مفعمة بالسعادة ويتمتع بمباهج العيش (نايف حاطوم، ١٩٩٤: ٩٩).  
إنَّ الشاعر في الأبيات التالية يطلب من والدته "سلمى" ألا تفكر بما يحدث في المستقبل المجهول، ويريد منها أن تصغي إلى صوت الجداول وتستشقي الأزهار في الجنات وتتمتع بمناظر الطبيعة وتعيش مرتاح البال (نايف حاطوم، ١٩٩٤: ١٠٠).

فاصغِيْ إلى صوتِ الجداولِ جارياتِ في السفوحِ / واستشقي الأزهارَ في الجناتِ ما  
دامتْ تَفوحُ / وتمتعي بالشهْبِ في الأفلاكِ ما دامتْ تلوحُ / من قَبْلُ أنْ يأتيَ زمانٌ  
كالضبابِ أو الدخانِ / لا تبصرينَ به الغديرُ / ولا يلدُّ لكِ الخريزُ (أبوماضي، ٢٠٠٢: ٧٦٧)

فيقول لها: اسمعي بتأن صوت الأنهار والمياه التي تتجرف نحو منحدر الجبل، وقومي بشمّ عبير الأزهار والرياحين والورود في الحدائق ما دامت تصدر روائح ذكية، وانتعشي من خلال مشاهدتك للنجوم في السماء ما دامت ظاهرة، ومن قبل أن يأتي زمان كالسراب والدخان وفي ذلك الحين لن ترين البركة والغدير ولن تتمتع بعد ذلك بسماع صوت الماء.

لتكن حياتك كلها أملاً جميلاً طيباً      ولتتملأ الأحلامُ نفسكِ في الكهولةِ والصَّبى  
 إنَّ التأملَ في الحياةِ يزيدُ أوجاعَ الحياةِ      فدعي الكآبةَ والأسى واسترجعي مَرَحَ الفتاةِ  
 (أبو ماضي، ٢٠٠٢: ٧٦٧-٧٦٨)

ويقول الشاعر لوالدته "سلمى": يجب أن تكون حياتك مليئة بالآمال والأحلام، وعليك الابتعاد عن الأمور التي تزيد من مصائبك، فيبدو أن الشاعر وجد الأمل والحلم نعمة لتخلص المرأة مما يزعجها ويؤلمها. ويقول إن التأمل في الحياة ومشاكلها، يزيد من معاناتك وأوجاعك في الحياة، وسلمى هي التي حملت على عاتقها عبء الحياة وتعاني من مشاكل الحياة. إن الشاعر في هذه القصيدة كلها يخاطب والدته "سلمى" ويرشدها لكي تعمل بهذه الإرشادات وتبحث عن حياة مليئة بالهناء؛ إن كانت في زمن الشباب أو في زمن الشيخوخة ويطلب منها ألا تتأمل في الحياة وما ترى فيها من آلام وصعوبات (نايف حاطوم، ١٩٩٤: ١٠١).

إنَّ أبا ماضي تزعجه معاناة المرأة، ففي قصيدة "المساء" حاول معالجة قضية المرأة بدعوتها إلى حبِّ الأمل والحلم وحاول تسكين آلامها، وقد كشف الشاعر باطنها وأوغل في وجدانها لتعرف على آلامها ومشاعرها المختلفة. وأيضاً يشير إلى معاملة المرأة وتصرفاتها أمام الأحزان في المجتمع، وأنه قد عرف هؤلاء النساء من خلال تجاربه في المجتمع الإنساني.

يلجأ أبو ماضي إلى الطبيعة لتخلص المرأة من الآلام والأحزان؛ لأنَّ الطبيعة لها أحسن وقع في الحالات النفسية، فيبعث الشاعر روح الأمل والنشاط في عمق وجودها للخروج من هذا المأزق، ومن خلال هذه الأبيات نعرف أن الشاعر نفسه كان يستلهم صبره وحلمه من الطبيعة وكان لها أثر بالغ في حياة الشاعر، لهذا يدعو المرأة إلى الصبر أمام المتاعب والأوجاع.

إنَّ غلاف قصيدة (المساء) غلاف رومانسي فيجعل هذه القصيدة أكثر وضوحاً وشفافية كروح الزهر.. فالأمل والحلم والجمال كلها من مقولات الرومانسية المتفائلة بمستقبل مشرق، لهذا السبب يطلب أبو ماضي من الإنسان ألا يتأمل في الحياة كثيراً ويريد منه أن يترك الآلام والصعوبات (المعوش، ١٩٩٧: ١٩٩-٢٠٠).

#### الوطن

إنَّ المواقف الوطنية ابتدأت بمحبة الوطن والحنين إليه ازدادت في القرن التاسع عشر، وأنَّ الاعتراز بالوطن عادة يجعل الإنسان ينصر الوطن وقضاياه (الخان، ١٩٩٢: ٤٢١). والمهاجرون عادة لا ينسون بلدانهم العربية بل يبقى كلامهم عن الأوطان، ولا يشغلهم العيش في البلاد

الأجنبية عن تتبع قضايا مجتمعتهم في سبيل التطور، حيث تمّت جذورهم في تلك الأوطان، ولقد كانوا يتغنّون بها دائماً حتى أصبح الحنين إلى الأوطان من أبرز سمات الشعر في أدب المهجر (جاد حسن، ١٩٨٥: ص ٦٤). إن حنين المهجرين وشوقهم إلى الوطن ليس له حدود، بل يصدر من أعماق القلب وهو حنين صادق تصطبّحه العواطف العميقة (البرهومي، ١٩٩٢: ٤٩). وأبو ماضي كسائر الشعراء المهجرين يعبر عن موقفه الوطني وله حالة الشوق إلى جمال طبيعة لبنان وخليبيتها فلذلك نرى اهتمامه الخاص بالقضايا الوطنية، إن طبيعة لبنان طبيعة الآمال والأحلام، وحبّ الوطن باقٍ في قلبه ويشتدّ كلّما يتقدم الزمن (الحاوي، ١٩٨١: ٤٤).

إنّ أباماضي لم ينس صورة وطنه، بل يجسّده في حياته ويتغنّى بطبيعته وجماله كلّما أتاحت له الفرصة. إنّ أحسن ما نظمته في لبنان، قصيدة "وطن النجوم"، حيث نجد في شعره حباً وحنيناً إلى وطنه الذي يتغنّى به بأحسن المشاعر وأرقّ العبارات، ويتحدّث عن الوطن الذي نزع عنه ويعتزّ به، ولم تضعف الغربة من شوقه إلى وطنه لبنان، فارتباط الإنسان بحبّ المكان الذي نشأ فيه شيء طبيعي لارتباط حياته بذلك المكان، حيث أسرته وأهله وعشيرته فيه وهو دليل صدق وإخلاص، وأنّه يمثّل انتسابه إلى المجتمع الذي كان يعيش فيه ويبقى هذا الحنين دائماً في وجوده.

وَطَنَ النُّجُوم... أَنَا هُنَا	حَدِّقْ... أَتَذْكُرُ مَنْ أَنَا؟
يَتَسَلَّقُ الْأَشْجَارَ لَا ضَجْرًا	يَحْسُسُ وَلَا وَنًى
وَيَخْوِضُ فِي وَحْلِ الشُّتَا	مُتَهَلِّلًا مُتَمِيمًا
لَا يَتَّقِي شَرَّ الْعَيُونِ	وَلَا يَخْشَى الْأَلْسُنَا

(أبو ماضي، ٢٠٠٢: ٧٣٦)

يا لبنان يا وطن النجوم... انظر... أتعرفني؟ أنا ذلك الولد الذي كان يصعد الأشجار دون تعب ومشقة ويخوض في وحل الشتاء بالفرح والسرور ولا يخاف من شرّ عيون الناس وطعنهم وحسادتهم له.

ترتبط قصيدة "وطن النجوم" بموضوع لبنان وهو يكشف عن شوقه الخاص إلى بلده بأجمل العواطف والأحاسيس. وفي الواقع يظهر لنا الشوق الحقيقي إلى الوطن عندما يغترب الإنسان عن موطنه الأصلي ويدوق تجربة الغربة، والإنسان إذا ابتعد عن مسقط رأسه يشعر بنوع من التضامن والارتباط بوطنه في أحاسيسه الداخلية. إنّ الشاعر لا يرى طريقاً

للخلاص من الحقائق المرّة ولا يجد حلاً سريعاً لآلامه إلا عن طريق عواطفه ومشاعره، لذلك نراه يلجأ نحو الطبيعة، فيعرّف نفسه قائلاً:

أنا ذلك الوالد الذي	دُنِيَاهُ كَأَنَّكَ هَهُنَا!
أنا من مياهِك قَطْرَةً	فَأَضَتْ جَدَاوِلَ مَنْ سَنَا
أنا من طيورِكَ بلبُلُ	غَنَّى بِمَجْدِكَ فَاعْتَنَى
كم عانقتُ رُوحِي رَبَّكَ	وَصَافَقْتُ فِي الْمُنَى نَحْنِي؟
للعشْبِ أَثْقَلُهُ النَّوْدِي،	لِلْغُصْنِ أَثْقَلُهُ الْجَنِي

(أبو ماضي، ٢٠٠٢: ٧٣٦-٧٣٧)

إنّ الشاعر ينظر إلى طبيعة لبنان، ويعتبر نفسه جزءاً من طبيعتها مع أنّ جسمه بعيد عن لبنان، فهو يصف الطبيعة من وجوه عدّة مستخلصاً منها آلام الغربة والأحزان ويخاطب وطنه بلطف وحنان وهو شاعر إحساس مرهف وصادق يذكر جمال لبنان وخلابيتها.

فَأَلْمَرُّ قَدْ يَنْسَى الْمَسِيءِ	الْمَفْتَرِي، وَالْمُحْسِبِنَا
وَمَرَارَةَ الْفَقْرِ الْمُنْذِلُّ	بَلِي، وَلِذَاتِ الْغِنَى
لَكِنَّهُ مَهْمَا سَلَا	هِيَهِاتِ يَسْلُو الْمَوْطِنَا

(أبو ماضي، ٢٠٠٢: ٧٢٨)

وفي الواقع يظهر من خلال هذه الأشعار أنّ إيليا أبا ماضي يحب وطنه ويشتاق إليه ويعتقد أنّ الفقر ومعاناته ولذات الغنى تنسى آجلاً أم عاجلاً ولكن ليس بإمكاننا أن ننسى الموطن الذي تمّت جذورنا فيه، والوطن عنده وسيلة للتحرر من الآلام والأحزان، وهو يشعر في وطنه لبنان بنوع من الراحة النفسية.

إنّ أبا ماضي قد عرف منزلة وطنه بعد ما هاجر عنه، فأفنى نفسه في طبيعة وطنه، ولا يجد فيه سوى المحاسن وينقلنا إلى ما وراء الظواهر ويظهر ما في وجوده من صدق وإخلاص للوطن. مع أنّ ظاهر الألفاظ سهل وبسيط لكننا إذا أمعنا النظر في كلمات الشاعر نجدها قريبة من القارئ وأنها تحمل في داخلها معانٍ عميقة، والهدف الذي يطمح الشاعر للوصول إليه لا ينحصر في وصف طبيعة لبنان، بل يريد أن يجعل الوصف مرآة تعكس آلامه ومعاناته فيها، وشعره في الحنين إلى الوطن يمكن أن يكون وسيلة لبيان مآسي الشاعر ويأسه من إصلاح المجتمع الذي قد عبر عنه بشكل غير مباشر.

ولا نشعر أنه ارتاح في البلاد الأجنبية، فزار عدة أماكن لكنه لم يستطع أن يتخلى عن موطنه الأصلي وهو يعتز دائماً بطبيعة لبنان، وبالرغم من خروج أبي ماضي من وطنه، وعيشه في بلاد أجنبية بعيدة، يعتز بانتسابه إلى الشرق حيث وطنه وموطنه الأصلي فيقول في قصيدة "أمنية المهاجر":

أيهما السائل عني من أنا      أنا كالشمس إلى الشرق انتسابي

(أبو ماضي، ٢٠٠٢: ١٥٥)

إيليا أبو ماضي من أجل ابتعاده عن وطنه، يعبر عن غربة تؤذي عواطفه وي طرح في هذين البيتين من القصيدة نفسها مشكلته من هموم واكتئاب.

ليس بي داء ولكنني امرؤ      لست في أرضي ولا بين صحابي  
مرت الأعوام تتلوا بعضها      للورى ضحكي ولي وحدي اكتسابي

(أبو ماضي، ٢٠٠٢: ١٥٤)

يقول إنني لست في وطني ولا بين أصدقائي وأقربائي. قضت الأيام وراء بعض والناس يشاهدونني مسرورا لكن روعي دائماً مضطربة وبقيت لي الأحران.

إن الشاعر يشعر بالآلم المجتمع العربي وأوجاعهم دائماً ويؤمن كل الإيمان بأنه وإياهم من مصدر واحد، فهو في قصيدة "من أنا" يقول:

بني وطني من أنا في الوجود      وما هوشاني وما موضعي؟  
أنا أنتم، إن ضحككم لأمر      ضحكت وأدمعكم أدمعي  
أما نحن من مصدر واحد؟      أسننا جميعاً إلى مرجع؟

(أبو ماضي، ٢٠٠٢: ٤٨٤-٤٨٥)

يا أيها المواطنون أنا مثلكم في الوجود، ما هو شأني ومكانتي، إنني أشاطركم في مصيبتكم وأصبح مسرورا عندما أراكم مشحونا بالنشاط ومازلت معكم في الأفراح والمصائب فتحن من مصدر واحد ونرجع جميعاً إلى المصدر نفسه.

مساندة الفقير واليتيم

إن الفقر من المشاكل الاجتماعية التي يتكلم عنها الشاعر، وتزعجه هذه الأمور وتزيد من مشاكله في الحياة، لأنه ذاق ألم الفقر والحرمان، لهذا نرى عنايته بهذه القضية الاجتماعية. إن في الفقر مأساة المجتمع وقضية الإنسانية المعذبة، والشاعر إيليا أبو ماضي يقول كلماته بصدق وإخلاص في قصيدة "الفقير" وتوغل في الفقر لأنه نفذ إلى جذر من جذوره:

نفسُ أقامَ الحُزْنَ بَيْنَ ضُلُوعِهِ      والحزْنُ نارٌ غيرُ ذاتِ ضيَاءِ  
يَبْكِي بُكَاءَ الطُّفْلِ فارقَ أمَّهُ      ما حيلةُ المحزونِ غيرَ بكاءِ!  
حيرانٌ لا يَدري أيقْتُلُ نفسَه      عمداً فيخلصَ من أذى الدُنْياءِ؟

(أبو ماضي، ٢٠٠٢: ١٠٥)

إنّ نفسي مليئةٌ بالحزن والهم وقد تسلل هذا الحزن في وجودي. ويبكي المحزون بكاء الطفل الذي توفيت أمه، والشخص المهموم ما حيلة له إلّا البكاء والأنين فإنّه حائر لا يدري أيقتل نفسه لكي يتخلص من آلام الدنيا ومتاعبها.

وهنا نقدر أن نشير إلى النفسية المهزومة بالنسبة إلى أبناء الشعب، ويظهر أنّ ثلّة من المجتمع قد ضلّوا الطريق إثر الاستماع إلى الدعايات الكاذبة من قبل الأثرياء التي لا تنتج سوى التأخر والتخلف والفقير. وفي الحقيقة يوجد طريق آخر غير اليأس والانتحار، وهو ردّ الفعل والاستقامة والاتحاد وتقوية المعنويات:

أم يستمر على الضّأضة والقذى      والعيش لا يحلّو مع الضّراءِ  
لهفي على المحتاج بين ربوعكم      يمسي ويصبح وهو قيد شقاءِ  
قلّ للغني المستعز بما له      مهلاً لقد أسرفت في الخيلاءِ

(أبو ماضي، ٢٠٠٢: ١٠٥-١٠٧)

يقول الشاعر إنّ الحياة لا تحلو أبداً مع المشاكل والمعاناة ويخاطب الليل ويقول يا ليل لماذا لا تشفق لحالتي وأنا أعاني من المحن والآلام؟ ولهفي على الفقير الذي يقضي حياته إلى جانبكم وحياته مليئة بالمتاعب والصعوبات، فقل للغني الذي يعتزّ بماله إنك تجاوزت حدك في التكبر والغرور.

والشاعر يشير إلى حالة الأغنياء، فهم يفتخرون بأموالهم ولا يساعدون الفقراء:

جبل الفقير أخوك من طين ومن      ماء، ومن طين جبلت وماءِ  
فمن المساواة أن تكون مُنعماً      ويكون رهناً مصائب وبلاءِ

(أبو ماضي، ٢٠٠٢: ١٠٧)

يرى أبو ماضي أنّ الناس لا يختلفون من حيث القيمة وكلّهم سواء ويرى أنّ الغني والفقير يتساويان في الخلقة ويجب أن يكون لكل الناس حق متكافئ من النعم لا أن يحرم الفقراء والضعفاء من النعم الأساسية والأولية.



تشير هذه الأشعار إلى أهمية الاهتمام بموضوع الفقر ومساعدة المستضعفين وإقامة العدالة الاجتماعية، فالشاعر يبقى مع الشعب ومع المستضعفين ولا يخفي تأثره بالفقراء:

انصر أخاك فإن فعلت كفيته      ذل السؤال ومنه البخل  
 إن الضعيف بحاجة لنضاركم      لا تقعدوا عن نصرة الضعفاء  
 إن كانت الفقراء لا تجزيكم      فالله يجزيكم عن الفقراء

(أبو ماضي، ٢٠٠٢: ١٠٧-١٠٨)

إنه يخاطب الناس لمساعدة المحتاجين ويقول لهم ساعدوا الفقراء لكي يتخلصوا من الاحتقار وذلة السؤال، إن الفقير بحاجة ماسة لأموالكم فلا تقصروا عن مساعدة الضعفاء لأن الله يجزي الشخص الذي يساعد الفقراء في رفع مشاكلهم.

فتجد عنده الدعوة إلى بذل المال فيذم البخل ويشجع الناس على الكرم والعطاء وأنه يبغى حب الخير والنفع للناس المحتاجين. ويشير الشاعر إلى الأخوة بين الناس وهذا لا يحدث إلا عبر التعاون والتضامن بين الناس، وهذا التعاون والأخوة يصوران أجمل العلاقات الإنسانية بين الناس، ويؤكد الشاعر على أهمية وجود روح التعاون مع الآخرين، ولا شك أن الإخاء من أهم الواجبات الاجتماعية وهو من أكبر دواعي التقدم، ويشير أبو ماضي إلى أن الأثرياء بما أنهم يتمتعون بمكانة اجتماعية رفيعة، يعيشون منفردين ويجتنبون أي تعامل وعلاقة مع المجتمع والفقراء.

وهذه الدعوة إلى الأخوة والتعاون في البيت الأول، يمكن أن تكون نقطة إيجابية لإزالة الفقر والحرمان، وإقامة الاتحاد في المجتمع والحصول على الحرية والقضاء على القوى الحاكمة، فهذه الأمور يمكن أن تكون جزءاً من الأحلام المتعالية لكل مجتمع، لأن كل شخص لو حده لن يكون قادراً على حل مشاكله، ولا بد له أن يتعامل مع الآخرين في حياته.

ومن أجل أهمية معالجة قضايا الفقراء والمحرومين، يدعو الشاعر جميع الناس إلى هذه القضية، وفي الحقيقة يهدف الشاعر إلى إزالة جذور الفقر من المجتمع العربي بصورة نهائية ويظهر أنه مهتم شديد الاهتمام بقضايا وطنه وثقافته ويسعى جاهداً لإيصال المجتمع إلى المراتب السامية.

وفي بعض الأحيان يكون لأفراد المجتمع دور في ظهور الفقر وفي بعض الأحيان يقوم الشخص عن علم أو عن غير قصد بعمل يؤدي إلى الفقر. إن جذور الفقر في مجتمع الشاعر يمكن أن يكون سببه عدم المقاومة وعدم قيام الناس بعمل معين إزاء القوى الظالمة في المجتمع

وعدم اتحاد الناس، ومن العوامل الأساسية في هذا الخصوص هي نوعية العلاقات الاقتصادية الحاكمة في المجتمع واختلاف الطبقات بين الأثرياء والفقراء.

ويقول الشاعر في هذه القصيدة:

إني مفصلةٌ ظلي على جسدي      فلا يكونُ بهِ طولٌ ولا قصرٌ  
ولستُ مثمرةً إلا على ثقبه      أن ليسَ يطرقني طيرٌ ولا بشرٌ  
(أبوماضي، ٢٠٠٢: ٣٣٧)

في هذه القصيدة تقول التينة الحمقاء إنني أخيط ظلي بقدر جسدي وبحيث يكون مناسباً بشكل كامل ولا يكون طويلاً أو قصيراً بل يكون على مقياسي تماماً، ولن أصبح ذا ثمر إلا وأنا متأكدة من أنه لن يقترب مني ومن ثمري أي طير أو إنسان.

الشجرُ فازينتٌ واكتستُ بالسندسِ      بموكبه عادَ الربيعُ إلى الدنيا حَجْرُ  
وظلَّتِ التينةُ الحمقاءُ عاريةً      كأنها وتَدُّ في الأرضِ أو حجرُ  
ولم يُطِقْ صاحبُ البستانِ رؤيتها      فهوتُ في النارِ تستعرُ  
من ليس يسخو بما تسخو الحياةُ بهِ      فإنَّه أحمقٌ بالحرصِ ينتحرُ  
(أبوماضي، ٢٠٠٢: ٣٣٧)

لكنه وبعد مدة رجع وأطلَّ الربيع على الدنيا بحمائله وبذلك أصبحت الدنيا مزينة وجميلة ولبست الأشجار السندس واللباس الأبيض، فبقت التينة المجنونة عارية من دون لباس أو كساء فمثلها مثل العمود اللاصق بالأرض أو كالحجر، لهذا السبب لم يتحمل صاحب البستان أن يراها بهذا المنظر، لذا اقتلعها من الأرض فسقطت التينة في النار واشتعل عودها. فيقول أبو ماضي إن من لا وجود ولا يهب ما تهبه وتعطيه الدنيا فإنه شخص حريص وحماقته تجرفه نحو أن يقتل نفسه وينتحر.

إن أبا ماضي يشبه الأشخاص الذين لا يفرضون على أنفسهم أن يساعدوا الفقراء في الحياة المادية بالتينة الحمقاء التي لا تنفع نفسه ولا تنفع الآخرين، فهي لاتعرف أن الأيام تمسح أموالها وثروتها، ففي هذه الأبيات إشارة إلى حياة الأثرياء الذين لا يهتمون بمن حولهم من الفقراء والضعفاء.

إن هذه التينة لم تعطِ قسماً من خيراتها ونعماتها على البائسين فلذا حُكِمَ عليها بالفناء، وكذلك الشخص الذي يكون قادراً على مساعدة المحتاجين فعليه أن يعطي الفقراء قسماً من

أمواله ومن يمنع خيراته ومحاسنه من الناس وهو قادر على العطاء كالشخص الذي ينتحر وهو لا يدري (نايف حاطوم، ١٩٩٤: ١١٦).

يقول الشاعر في قصيدة "الفقير": إنك تحسب البائسين أحياء ولكنهم موتى في مجتمعنا وهضمت حقوقهم، وليست لهم إمكانيات لقضاء الحياة، فإني أرى حظوظهم مسودة كالظلماء:

وَأَرْحَمَتَا لِلْبَائِسِينَ فَبِإِنَّهُمْ      مَوْتَى وَتَحَسَّبُ بِهِمْ مِنَ الْأَحْيَاءِ  
إِنِّي وَجَدْتُ حُظوظَهُمْ مُسَوِّدَةً      فَكَأَنَّهَا قُودَتْ مِنَ الظُّلْمَاءِ

(أبو ماضي، ٢٠٠٢: ١٠٦)

ثم يخاطب الشاعر في هذه الأبيات الفريق المحتاج، ويدعوهم إلى الصبر والحلم ويريد منهم أن يتركوا الأغنياء المترفين الذين حياتهم مفعمة بالفرح والبهجة فإنهم زائلون مثل سرورهم ولذاتهم، ويقول أنتم تُمسون في الجنة وهؤلاء البخلاء خالدون في الجحيم.

دَعُوا الْأَغْنِيَاءَ وَلِذَاتِهِمْ      فَهُمْ مِثْلُ لَذَاتِهِمْ زَائِلُونَ  
سَيَمْسُونَ فِي "سَقَرٍ" خَالِدِينَ      وَتُمْسُونَ فِي جَنَّةٍ تَعْمُونَ

(أبو ماضي، ٢٠٠٢: ٧٦٢)

ومن نزعتة الإنسانية أيضاً حبه لليتيم ويكون تصويره تصويراً بارعاً ومؤثراً في النفوس، وهذه سمة من سمات شعره، فيقول في قصيدة "اليتيم":

إِنَّهُ غَرْسَةٌ سَتُطَلَعُ يَوْمًا      ثَمراً طيباً وزهراً جنياً  
إِنَّ يَكُ الْمَوْتَ قَدْ مَضَى بِأَبِيهِ      مَا مَضَى بِالشُّعُورِ فَيْكَ وَفِيَّا  
فَاعْتَنُوهُ كِي يَعِيشَ وَيَنمو      نَاعِمَ الْبَالِ فِي الْحَيَاةِ رَضِيَا

(أبو ماضي، ٢٠٠٢: ٨٢١-٨٢٢)

يقول الشاعر إن اليتيم غرسة ستنمو يوماً ويثمر ثمراً طيباً، إنه يعاني من الفقر فاهتموا به لكي يعيش مرتاح البال ويرفع المعاناة عن حياته الاجتماعية، إنه فقد والده فهو يحتاج إلى الحماية العاطفية والنفسية. إن اليتيم نبتة ستنمو وتظهر يوماً على شكل ثمرة طيبة وأزهار طازجة.. إن الموت قد مرّ على أبيه وتوفاه فلا تقلق لأنه لن يشعر بك لأنه رأى منك الوفاء ما رأى.. الشيء الكثير. إنه يعاني من الفقر فاهتموا به وراقبوه حتى يعيش ويكبر مرتاح البال في الحياة... ويرفع المعاناة عن حياته الاجتماعية، إنه فقد والده فهو يحتاج إلى الحماية العاطفية والنفسية.

إنّ الشعراء المهجريين واجهوا معاناة عديدة، وقد ذاقوا الفقر والحرمان والبؤس، وهذا الأمر جعلهم يدعون الأثرياء إلى مساعدة الفقراء والمحرومين، فشاعرنا أبو ماضي يغضب على الأغنياء الذين لا تهمهم آلام الفقراء ومشاكلهم (جميل السراج، دون تا: ١٣٨). فترى في هذه الأبيات أعلاها اهتمام الشاعر بإصلاح المجتمع الإنساني ونجده يحارب الأوضاع الفاسدة وسوء تصرف الأغنياء أمام الطبقات المحرومة، ويدعو الناس إلى الاعتناء باليتيم ومساعدته طيلة الحياة.

### الظلم

إنّ أشعار أبي ماضي أصدق صوت يعبر عن حالات الإنسان في المجتمع وأجمل صورة تعبر عن معاناته وأوجاعه، إنّه شاعر يحسّ بآلام الإنسان ويشعر بما حوله من ظلم وجور. إنّ الحكام المفسدين يسعون إلى تحقيق أهدافهم، وللوصول إلى أهدافهم هم أشدّ استبداداً وأكثر ظلاماً. إنّ أبا ماضي خرج من دياره كي يتمتّع بمباهج الحياة وعيشة كريمة وينجو من ظلم الأتراك العثمانيين واستبدادهم، ويحصل على الحرية، وهذه الدوافع تكفيه لكي مغادرة وطنه. إنّه يجسّد سبب هجرة المهاجرين الذين تركوا أوطانهم واختاروا العيش بعيداً عنها، والشاعر يعاني مما يعاني منه أبناء وطنه من مآسي اجتماعية ومن مشاكل معيشية لأنّه شهد بعض هذه المعاناة في مجتمعه خاصة ظلم الأتراك، فيقول في قصيدة "بلادي":

وَيْشَقِي مَوْطِنِي وَأَنَامُ عَنْهُ      إِذَا مَنْ يَدْفَعُ الْخَطَرَ الْجُسَامَا؟  
رِجَالُ التُّرْكِ مَا نَبِغِي أَنْتِقَاضَا      لَعَمْرُكُمْ وَمَا نَبِغِي أَنْتِقَامَا  
حَمَلْنَا نِيرَ ظُلْمِكُمْ قُرُونًا      فَأَبْلَاهَا وَأَبْلَانَا وَدَامَا

(أبو ماضي، ٢٠٠٢: ٦٦٤-٦٦٥)

من الذي يريد أن يدفع ظلم الأتراك العثمانيين عن الناس، إنّ المواطنين أصيبوا بمصيبة عظيمة ونحن غفل عن هذه القضية. يا رجال الترك نحن لسنا متمردين ولا نريد أن نأخذ بالثأر، إنّنا حملنا ظلمكم أعواماً عديدة إنّ ظلمكم قد بلغ ذروته ودارت علينا الخطوب والمحن. فهو يتعقّب جذور المشكلة، ويرى أنّ العثمانيين كانوا يظلمون الشرق وهم سبب التخلف والعداوة والخصام في المجتمع الشرقي، وهذه هي الأمور التي دفعت الشاعر وأبناء شعبه لكي يغادروا الوطن... (المعوش، ١٩٩٧، ص٥٦). وكانت من أسباب الهجرة والآلام التي يعاني منها الشعب، هو الاستعمار والظلم، فتخلّف هذا المجتمع لهذه الأسباب، فالشاعر يقول:

أَثَرْتُمْ بَيْنَنَا الْأَحْقَادَ حَتَّى  
لَيْقَتُلُ بَعْضُنَا بَعْضًا خَصَامَا  
هُمُ نَزَعُوا لِوَاءِ الْمَلِكِ مِنَّا  
وَنَازَعَنَا طَفَامَهُمُ الطَّعَامَا  
إِلَى كَمِّ يَحْصُرُونَ الْحُكْمَ فِيهِمْ  
وَكَمْ ذَا يَبْتَغُونَ بِنَا احْتِكَامَا  
(أبو ماضي، ٢٠٠٢: ٦٦٥)

يقول أبو ماضي للأتراك إنكم عامل رئيسي في انتشار الحقد والقتل بين الشعب وأنتم نزعتم منا الحرية وسيادة البلاد وشبّت نار الحرب علينا ويقول لهم إلى متى تقومون بالقتال ولماذا تستمر هذه المعارك علينا دائما. إن معاناة الشاعر تبدأ بالظلم وانتشار الحقد والخصومة والاضطرابات والضغط السياسية التي فرضها العثمانيين على المواطنين، والشاعر يحسّ دائما بمرارة هذه الجور والهجرة والتشريد. فيقول الشاعر في قصيدة "تحية الدستور العثماني":

نَزَلَتْ عَلَى الشَّرْقِيِّ فَاَنْحَطَّ شَأْنُهُ  
وَقَدْ كَانَ غَصَّ الْفَخْرِ غَصَّ الْمَكَارِمِ  
أَقَمْتَ فَخْلَى أَهْلَهُ وَبِلَادَهُ  
إِلَى كُلِّ فَجٍّ مِنْ خَصِيبٍ وَقَاحِمِ  
ثَلَاثُونَ عَامًا وَالتَّوَائِبُ فَوْقَنَا  
مَخِيْمَةٌ مِثْلُ الْغَيْوَمِ الْقَوَاتِمِ  
فَلَا الْعِلْمُ مَرْمُوقٌ وَلَا الْحَقُّ نَافِذٌ  
وَلَا حُرْمَةٌ تُرْعَى لِغَيْرِ الدَّرَاهِمِ  
(أبو ماضي، ٢٠٠٢: ٦٣٩)

قد أتيت على الإنسان الشرقي وعندئذ انحطت منزلته إلى الأسفل، وقد كان قبل ذلك ينعم بالفخر الكبير والمكارم العليا والمجد العظيم، وسكنت وقمت بالإقامة هنا وذلك جعله يترك أهله وبلاده ويذهب نحو كل واد رطب ويابس (صعب)، وثلثون سنة تمضي ولا تزال هذه المصائب تحوم فوق رؤوسنا وهي قد خيمت علينا مثل السحب والغيوم السوداء، فلا العلم له مكانة سامية ولا ينفذ الحق، ولا يهتم سوى بمن يملك الأموال والدراهم.

فيقول إنكم سبب أساسي في تحقير الناس وتقليل شأنهم ومكانتهم في المجتمع الشرقي وعندما أقمت في البلاد العربية أصبحت تلك البلاد خالية من الناس وهم تفرّقوا في كل مكان ونزلوا بمكان فيه الخصوبة وأيضا فيه القحط والحرمان. استولت المتاعب والمشاكل على المجتمع لمدة ثلاثين عاما وخيمت المشاكل فوقنا مثل الغيوم السوداء، ولا مكانة للحق والعلم بل يحترمون المال فقط.

إنّ ظلم الأتراك يزعج الشاعر في وطنه العربي وكلهم يطعمون بهذا الوطن وهم كانوا يظلمون الشعب العربي ويضيعون حقوقهم، فإيليا أبو ماضي يجد أنّ ظلم العثمانيين سبب رئيسي في تشريد الناس، لذلك كان الشاعر يدعو أبناء الشعب العربي إلى توحيد صفوفهم وإلى ردّ

الفعل ويثير فيهم الكرامة والشعور بالعزة. فيقول في قصيدته "يا بلادي": إن البلاد كأمّ لكم وأنتم أولادها وأهل تلك البلاد وأنتم صاحبها فلا تساعدوا بالصمت الأشخاص الذين ظلمونا. هي أمّ لكم وأنتم بئوها/ حفّظت عهدكم فلا تنكروها/ أنتم أهلها وأنتم ذوّها/ لا تعينوا بالصمت من ظمّوها/ ذاك عار على النفوس الأبيّة (أبوماضي، ٢٠٠٢: ٢٦٦)

### النتائج

١. إن أشعار إيليا أبي ماضي نابعة من صميم قلبه، تنبض كلّها بالحياة والإنسانية والأمل، ونرى اهتمامه الكثير بالخير الإنساني.
٢. إن الشاعر يدعو الناس في شعره إلى محبة الحياة في تصويره لجمال الطبيعة ومحاسنها.
٣. اتجه الشاعر إلى المشاكل الاجتماعية في البلدان العربية كانتشار الفقر والظلم والفقر والمعاناة التي توجد أمام كل الناس.
٤. يدعو الشاعر الإنسان لخدمة وطنه ومساعدة الفقراء في الشؤون الاجتماعية، ويعالج مشاكل المجتمع بطريقة واعية.
٥. يتكلّم أبو ماضي بلسان الناس معبراً عن معاناتهم وآلامهم، والشاعر قد أسهم في تغيير آراء الشعب في الكشف عن الحقيقة.
٦. رغما من الظروف السيئة التي واجهها أبو ماضي، فإنّه أسهم في رفعة الأدب العربي وله دور أساسي في إصلاح المجتمع الإنساني.
٧. لا يقف إيليا أبوماضي عند حدود الذكريات، بل يقوم بتفصيل الوضع الاجتماعي ويمتلك هذه الجرأة والشجاعة من نظرتة الواقعية إلى الحياة الاجتماعية.
٨. لا يجد الشاعر الواقعية إلا من بين هموم الناس وآلامهم في المجتمع الإنساني.
٩. إن الشاعر الرومنسي يتطرق ومن خلال محاولته لإنشاء يوتوبيات، يتطرق إلى الواقعية الاجتماعية، ومن هنا يتصل الرومنسية بالواقعية.

## المصادر والمراجع

١. أبو ماضي، إيليا (٢٠٠٢م). ديوان إيليا أبو ماضي. بيروت: دار العودة.
٢. بروهومي، خليل (١٩٩٣م). إيليا أبو ماضي شاعر السؤال والجمال. بيروت: دار الكتب العلمية.
٣. جحا، ميشال خليل (٢٠٠٣م). أعلام الشعر العربي الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش. ط ٢، بيروت: دار العودة.
٤. جميل السراج، نادرة (دون تا). شعراء الرابطة القلمية. ط ٣، القاهرة: دار المعارف.
٥. نايف حاطوم، عفيف (١٩٩٤م). إيليا أبو ماضي (حياته، شعره، نثره). بيروت: دار الثقافة.
٦. الحاوي، إيليا (١٩٨١م). الشعر العربي المعاصر. ط ٣، بيروت: دار الكتب اللبناني.
٧. جاد حسن، حسن (١٩٨٥م). الأدب العربي في المهجر. قطر: دار قطري بن الفجاءة.
٨. الخازن، وليم (١٩٩٢م). الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية. ط ٣، بيروت: دار العلم للملايين.
٩. الخضراء الجيوسي، سلمى (٢٠٠٧م). الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث. ترجمة عبدالواحد لؤلؤة، ط ٢، بيروت: [دون نا].
١٠. خليل، إبراهيم (٢٠٠٧م). مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث. ط ٢، عمان: دار المسيرة.
١١. ضيف، شوقي (دون تا). دراسات في الشعر العربي المعاصر، الطبعة السابعة، القاهرة: دار المعارف.
١٢. الطباع، عمر فاروق (٢٠٠٦م). الرّفص في الشعر العربي المعاصر. بيروت: مؤسسة المعارف.
١٣. المعوش، سالم (١٩٩٧م). إيليا أبو ماضي بين الشرق والغرب، في رحلة التشرد والفلسفة والشاعرية. بيروت: مؤسسة بحسون.
١٤. موسى، منيف (١٩٨٦م). الشعر العربي الحديث في لبنان. ط ٢، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.
١٥. الهواري، صلاح الدين (٢٠٠٩م). شعراء المهجر الشمالي. بيروت: دار ومكتبة الهلال.